أطفال الآخرين

قصة بقلم سميرة عزام

حين جمع نفسه ليقوم احس بانه غير الشخص الذي دخل ..فبعض الحقائق التي تأتي جازمة احيانا تقف كاشارة في مفترق طرق ، وقد وضعته هذه الحقيقة في طريق جديدة وواجهته باشياء كانت في ضمير الغيب ولكنها لما تكشفت ـ حين سعى اليها ـ القت في قلبه ثقلا اسود احس به يشده الى هوة فاغرة كما يحدث له في الاحلام بعد عشاء ثقيل ، ولكنه كان يستفيق في تلك اللحظة فيفرك عينيه ويرفع رأسه عن المخدة ويبدأ يعي موجودات الغرفة وقليلا قليلا يتخلص من ربقة الثقل ...

ولكن هذه لم تكن حلما ، كانت حقيقة ولا يمكن ان تكون الحقيقة في مكان افصح منها في عيادة طبيب .. وطبيب اختصاصي .. اختفت عيناه الخبيرتان وراء نظارة طبية وراح يقول بهدوء وثقة يخالطهما غرور علمي.. « اخشى ان اقول انه لن يكون بوسعك ان تصبح أبا .. سأجرب معك بعض العلاجات .. يجب ألا نقطع خيط الامل .. ونرجو ان ننجح فالعلم يصنع المعجزات احيانا ..»

يصنع المعجزات احيانا ..

اجل شعرة امل رفيعة تتعلق بذيول « احيانا » التي يمكن ان يقال بعدها استطرادا .. « وفي أكثر الاحيان لاتقع المعجزة » .. فالعلم مايزال اصغر من الام الانسانية .. وقد يعيش الانسان اوفر سعادة في احتمالات امل لا يحدد العلم نسبته مما لو كان يعيش مترقبا معجزة علمية.. ولم يقل شيئا للطبيب .. حمل وصفته وانسل بهدوء ولما نزل السلم احس بها تأكل راحة يده ، فدعكها والقى بها الى ريح خفيفة حملتها على جناح ساخر ، ثم مشى الى بيته في طريق احست به ثقيلة بصورة لم يألفها ..

صوت جرس مرح مجلجل يبلغه في الثامنة من كل صباح ويكون هو قد انتهى من ارتداء ثيابه فيحمل سيجارته ويقف بجوار زوجه على النافذة المطلة على روضة الاطفال يرقبان كيف تتجمع الرؤوس الصغيرة السمراء والشقراء لتنتظم في صفوف مستقيمة يفسد من انتظامها احيانا طفل مشاكس ، ثم يأخذ كل منها وجهته الى غرفة وراء معلمة قلبها اكبر من قلب ام .. ويلف زوجته بذراعه ويسبح في عينين غارقتين تلهفا كمن يقول : « لو يكون هؤلاء كلهم اطفالنا ! »

لقد باتت الروضة جزءا من حياتهما . انه يعلم انه في الساعات التي يغيب فيها عن البيت تكون هي على النافذة تعيش يوم المدرسة بتفصيلاته وجزئياته ، تعيه حكاية طويلة تقصها على مائدة الغداء ... وكم من مرة احترقت الطبخة وهي لاهية عنها على النافذة وعذرها انها لم تملك الا ان تشهد حصة الرقص حتى النهاية ..و « لقد ابدعت (مها) في الرقصة » .. كما « اطرت المعلمة اجتهاد (عمر) » .. « وفي العطلة تشاجر (سامي) مع مجموعة بنات لانهن رفضن اشراكه في اللعبة .. وانتصرت البنات وانفردن باللعبة » .. « الارجوحة اليوم كانت من نصيب (عدلي) الذي استأثر بها بعناد عجيب » «رفض (سمير) أن يقوم عن الدراجة وتمرد على حتى على وعيد المعلمة » دنيا صغيرة تتجسد فيها كل النوازع .. ودنيا حلوة .. فخصومامها لاتورث اكثر من دموع خفيفة تمحي في ثوان ... وزوجته تعي افراد هذه الدنيا واحدا واحدة .. تعرف اسماءهم ، تناديهم من مكانها وتلقي اليهم بالحلوى .. وتتدخل من مكانها ايضا لترجو المعلمة ان تصفح عن واحد فلا تحرمه من لعبة لانه كان مشاغبا وتنتصر للبنات في المباريات ، وتتحيز لهن فتصفق ..

سألها مرة ماذا تفعلين لو اخلينا هذه الدار ؟ .. قالت « اصبح معلمة في الروضة » . وسكت قليلا ثم قال بفرور : « ولماذا لا ننشيء روضة في بيتنا .. هل تكفيك دزينة؟ » وتقول محاولة ان تتغلب على خجلها « الدزينة صف واحد .. مارأيك في ان تتزوج اربعا تجعل منهن اربع معلمات لاربعة صفوف .؟ »

ويضحكان .. كانا سعيدين .. بعمق وبساطة .. فكل ما حولهما يوحي بقصة سعيدة .. في حواشيها اطفال كثيرون كثيرون ...

هذه حياته طيلة ثلاثة اعوام ..

ثلاثة اعوام تخرجت خلالها من الروضة افواج ، والتحقت بها افواج.. وابتدأت اسنان الحليب تسقط من فم جمال مي ومازن ..

وفي ثلاثة اعوام تستطيع اية نكتة ان تبهت ، وتستطيع حكاية الدزينة ان تصبح حساسة اذا لم تهل طلائعها ..

لم تحمل زوجته ..

ومع ذلك فالامر لم يلبس ثوب المشكلة لولا ان في حياة الاسرة الشرقية ـ اية اسرة ـ ابعادا غير بعدي الزوج والزوجة ..

كانت هناك امه وامها .. عمته ، اربع من شقيقاته لا يراهن الا منتفخات البطون ..

اولئك جميعا يرفضن ان تظل النكتة العوبة لفظية .

ولد لكل عام زواج .. اليس لهذا يتزوج الناس ؟.. الم يكن هو واحدا من تسعة اشقاء وشقيقات ؟ .. مسؤولية تقصم الظهور وكان ابوه راضيا تقوم « نشكر الله » على شفتيه وتقعد عشر مرات في اليوم . ولا يكاد يجمعهم واياه مجلس حتى يقول « فزنا من زينة الحياة الدنيا باحد شطريها .. هذا الذي نقدر عليه .. أليس كذلك يا ام سعيد ؟..

ويضحك ثم يسحب نفسا طويلا من نارجيلته معتزا بجيشه الصغير..

لقد اختلت به امه خلوة خاطفة قبل شهر فقالت « مالك ساكت ؟ زوجتك لم تحمل ونساؤنا امهات يا بني ، خذها للطبيب فلا خير في عاقر .. او دع امها تأخذها اذا كنت تستحي..» ولا يدري كيف اسكت امه في ذلك اليوم ، كيف ردها بخشونة بكلام مختصرة : « هذا شأني انا » .. ولكن امه تصر على انه شأنها أولا ، لذا عرفت كيف تحاصر زوجته وتلقي باهانتها على شكل نصيحة ... فقد جاءته هذه تقول ـ « قل لامك بأنني قصدت الطبيب .. وان نتيجة الفحص اكدت صلاحيتي للامومة .. »

قالتها وانسحبت .. كأنها قنعت بانها غسلت عنها الاهانة ... عار العقم .. وكانت عيناها منفعلتين .. وصوتها يهتز.. انه في العادة يحب ضعفها ، فهو اعتراف ضمني بتفوق رجولته ولكنه احس في دمعتيها طعم التحدي .. تحدي انسان يستطيع ان يكون لئيما لو اهين ... ولاول مرة لمس منها الاهانة .. وشعر بان المسؤوليات تمتحنه .. وخاف ان يكون اصغر من التجربة ..

كانت روحه ثقيلة ، اثقل من دعساته على الاسفلت الساخن في ظهيرة صيف .

كان السر الذي حمله من عيادة الطبيب كان يعلن عن ذاته بشكل يفضح عقمه ويبدو لكل من هؤلاء الرجال الذين يهرولون الى بيوتهم بالخبز او الخيار او الحلوى ، هذا واحد يموت شوقا الى طفل من اطفالكم الذين يملأون حياتكم صخبا وضجيجا وافلاسا ، ويملأونها سعادة تسع الصخب والضجيج والافلاس ويظل فيها متسع .

هل صحيح انه يحب الاطفال الى هذه الدرجة ؟..

الواقع انه لم يمتحن احساسه تماما .. لم يسأل نفسه هل اكون تعيسا لو لم اصبح ابا ؟..

فالاجابة بصدق على هذا السؤال هي التي تحدد موقفه العاطفي من الامر .. فلو سأل نفسه هل تحب الاطفال لاجاب نعم ، شيء بديهي مثل جوابك على « هل تحب الخبز ؟ » .. ان هذه المخلوقات اللطيفة تبهجه تماما ، اوليست مصدر متعة واثارة دائمة في بيته المطل على الروضة ؟.. ولكنه لم يسبق ان وضع سؤاله بالصيغة السالفة التي تجبهه باحساس محدد . ان الناس يتزوجون لينسلوا ، هذه هي وظيفتهم وليس ادعى لفخره من ان ينادى « بابي ابراهيم » وبلادته كما يبدو لم تشكل له عقدة ، فالناس لايمسكون باصبعه واضعينه عليها ، وهم لايسألونه « لماذا انت بليد » .. ولكنهم يجدون من حق فضولهم الاجتماعي ان يسألوا « هل رزقت اطفالا » ، وهم يرفضون ان يسمعوا منه غير النعم ؟ فهي الضمانة التي تقنع الناس بانه واحد مثلهم . وهذا الموقف الجديد سيزجه في تعقيدات لم يكن يحس بها .. وقد تستسلم زوجته وهو يلقي اليها بنتيجة فحص الطبيب . وقد تهون عليه فتقول هذا « قدرنا » .. ولكن استسلامها مهما نجح في ان يلبس طابعا انصياعيا فهو حتما قشرة خارجية لاحساسات داخلية محتدمة ..

هي ام .. تحب الصغار على اوسع مايستطيع قلب انثى ، انها اكثر من مرة لو رزقنا اطفالا فلن نجهد رأسينا بحثا عن اسم طريف،سنطلب اكثر من مرة لو رزقنا اطفالا فلن نجهد رأسينا بحثا عن اسم طريف،سنطلب سجل الروضة ونختار ؟

الروضة ! وشعر بأن هذه ايضا عامل يزيده تعقيدا ، فمهما كابر فهو حتما سيختنق بالغصة كلما رأها تطل من النافذة تنادي هذا وتداعب ذاك وتحب الجميع .. وقد يشقى اكثر لو هي لمست شعوره الجديد فمنعت نفسها عن اغداق هذا الحب على جيرانها الصغار . بأي حق يفرض عليها هذا التأزم ؟ انه هو نفسه لايستطيع ان يمتنع عن محبة صغير ، فهل ستخضع تصرفاته لو ابتسم لواحد ، لو مسح على رأس الاخر ، لو حمل ابناء اخوته ، لو اشترى لهم لعبا كما يفعل ، لتأويلات لاتعرف كيف تتعاطف الا بشكل فج يجرح اكثر مما يؤاسي !!.. الرثاء ...

انه يرفضه منها ، من اهله ، ومن الناس جميعا .. ومع ذلك فلن تحيد نظرة الجميع اليه عن هذه الزاوية ... هو الذي عجز ان يمنح زوجته ابنا ... افضل منه اي كلب يستولد انثاه اربعة جراء مرة واحدة !!

وسره هذا الذي كشفه الطبيب سيكون في متناول اية واحدة تمد فضولها الى عالمها فتتبري زوجته لتدفع عنها سبة العاقر مقسمة انها كالاخريات ، كاخواته واخواتها ، كصديقاتها ،ككل الامهات اللواتي يأتي اولادهن الى الروضة .. واللواتي يختصرن الوجود في امل يعلق بالرؤوس الشقراء والسمراء ..

كانت المجلة التي في يده حيلة يدفع بها احساسه الفائم الكئيب وهو ملقي على فراشه بعد غداء لم يصب منه الا مايرد سؤال زوجته « مالك لاتأكل » .. وكان جرس الروضة يقرع معلنا انتهاء يوم مدرسي وزوجته كالعادة مدلاة الرأس .. .لقد هم بأن يحكي لها بعد انتهاء الطعام ولكنه قال في نفسه ماذا يضيرني لو تركتها اسابيع تعيش في وهمها الجميل .. وتجلد محاولا ان يصغي لكلامها ولكنه لم يجد القدرة في نفسه ليضحك لاخبار اصدقائها الصغار .. ولقصة خالد الذي يصر ان يحمل قطته الى الروضة ، ويصر على ان يجعلها تجلس قسرا الى

مجموعة كتب العرب والاسلام

صدر منها ق.ل

١	الاخوان المسلمون	تأليف : الدكتور اسحاق موسى الحسيني ـ طبعة ثانية ـ	٣٠٠
٢	الاسلام في نظر الغرب	« اسحاق موسى الحسيني	١٥٠
٣	ازمة الفكر العربي	« اسحاق موسى الحسيني	١٥٠
٤	زين العابدين علي بن الحسين (ع)	تأليف عبدالعزيز سيد الاهل	١٠٠
٥	في ظلال النبوة	تأليف محمد سليم رشدان	١٢٥
٦	من الزاوية العربية	تأليف الدكتور نبيه فارس	١٠٠
٧	معنى الحرية في العالم العربي	تأليف الدكتور انيس القاسم	١٥٠
٨	معنى الثورة	تأليف الدكتور جورج حنا	١٥٠
٩	معنى القومية العربية	تأليف الدكتور جورج حنا	١٧٥
١٠	خواطر حول الجمهورية العربية المتحدة	تأليف الدكتور جورج حنا	١٥٠
١١	احاديث مع المرأة العربية	تأليف الدكتور جورج حنا	١٧٥

رجل بلا تاريخ

انـا ياصديقة
لقاء غريبين ، نزوة لحظـه
وهجرة شوق وراء الحقيقه ...
رفاقي ضياع ووهم ولفظه
وشيء .. .بقايا مزيقه
نجيمات ليل .. حكايا هريقه
تنقط نيرانها في جراحي العميقه .

***

متى ؟ من زمان طويل ..
رفعت قلاع الرحيل
على زورقي .
وقلت لشمس الاصيل
تأني ... تأني ... ولا تغرقي
وللريح ، سوقي الشراع الجميل
الى المشرق
الى حلم جفن وحيد ... بليل
يسائل عني الصباح
يسائل حتى جراح الجراح ...

... وجئت . ثقيل الترنح . احدو
مسيري بكل شروري
بكل غروري ، بلا مقصد
اسائل حتى الضفاف عن الموعد
عن الشرق ، عن راحة تتلقى يدي .

***

فلا تسأليني من اي شرفه
وراء العصور
جررت بقاياي حتى لقائك . . اية صدفه
تحدت مصيري
فرشت بعينيك اظلال الفـه
ودعوة حب بلون العبير
وحزنـا ..... ولهفـه
وشدت اليك شعوري .

***

زمان يؤوب الخريف ..
يمد رواق العياء ،
يجرح زهو الحديقة ،
ويسحق حتى هلال الرجاء ..
تكونين انت لقى ياصديقه
وحدس طيوف هزيله
تنقل اشباحها في الليالي الطويله
وابقى .. انا ، وجراحي العريقه
ومـد فراغ مريب
وهذا الشعور الكئيب
بأني غريب ..

***

فلا تسأليني بعد لانـي
سأفرغ كأسي
واغسل جرحي ببأسي
وانزع حبك مني
واحمل نفسي ، وامضي بعيدا
لاقضي ، كما عشت عمري ، وحيدا

بيروت — **ظافر الحسن**

الارجوحة ليقوم بهزها على هواه حتى اذا قفزت هاربة سعى اليها واعادها بالقوة الى الارجوحة. وحين كانت المجلة في يده كانت عيناه تزوغان بين السطور .. وفكر في ان مجاورته للروضة لن تريحه من عذاب تفكيره.. فقد باتت قطعا تسرح عواطف زوجه فيه طولا وعرضا .. هذه النافذة ستعذبه كثيرا .. لقد بلغه منها صوت جرس الدخول والانصـراف في مئات الايام ولكنه ماضاق بالدوي ضيقه الساعة .. وفي اذنيه اختلط صوت الجرس باصوات السيارت التي اقبلت لتحمل الصغار .. فهرعوا اليها صائحين صاخبين وارتفاع صوت المعلمات يوصيهم بالهدوء .. ولمع صوت زوجته « مع السلامة مها ، مع السلامة سامي » .. وكانت تلتفت اليه بين لحظة واخرى لتقول « [illegible] وانظر خالد ينوء بحمل قطته وحقيبته معـا » .. وكان الدوي يدور في رأسه يدق على اعصابه دقا .. ولـما اسرفت في الحاحها فكر في ان يقوم ، لا ليتفرج بل ليغلق النافذة .. ليقول لها بان تعقل قليلا وتكف عن هذه الصبيانيات .. ياالهي الم تفهم هذه الحمقاء بعد ؟

ولـما اقبلت تشده من يده قام بعصبية وضيق ومد يده الى مصراع النافذة يهم باغلاقه ، ولكن يدا صغيرة لوحت له من الاسفل ثم ارتفعت اكثر من يد ، لقد كانوا اصدقاءه لشهور طويلة ولم يستطع ان يجفـو هذه الايدي الممدودة فابتسم ، واستعرض في نظره مجموعات الرؤوس الصغيرة فتنهد ... ان هؤلاء يمنحونه شيئا ، يعطونه الفرصة لان يحب، وشهادة الطبيب فيه لايمكن ان تبدل حقيقة احساسه فيما بينه وبـين نفسه على الاقل .. ولكن لماذا يظلم الطبيب ؟ .. ان الاطباء يتركـون شيئا للعلاج وشيئا للامل ليظل للحياة ماتستحق ان تعاش من اجله .. فلماذا صدهما معا .؟ طرد الامل ومزق الوصفة .؟ واختار ان يتقبـل النتيجة كما يتقبلها اي كافر بعدل الحياة .؟

وقليلا قليلا سكنت الاصوات ، وخلت الساحة من الرؤوس السمراء والشقراء ... ولكن صاحبنا لم يرتد عن النافذة .. ولم يغلقها . بل وقف يستعرض اراجيحها ودراجاتها واحصنتها الخشبية طويلا .. ولـما تملى منها بعينين حالمتين اختلجت شفتاه بكلمة لم تسمع .. من يدري ..

وابتعد عـن النافذة ...

وخلاهـا مفتوحة للصغار .. والامل ..

سميرة عزام